مطرانية بني مزار
والبهنسا

نبذات روحية هادفة
(٧٥)

الدموع الشافية

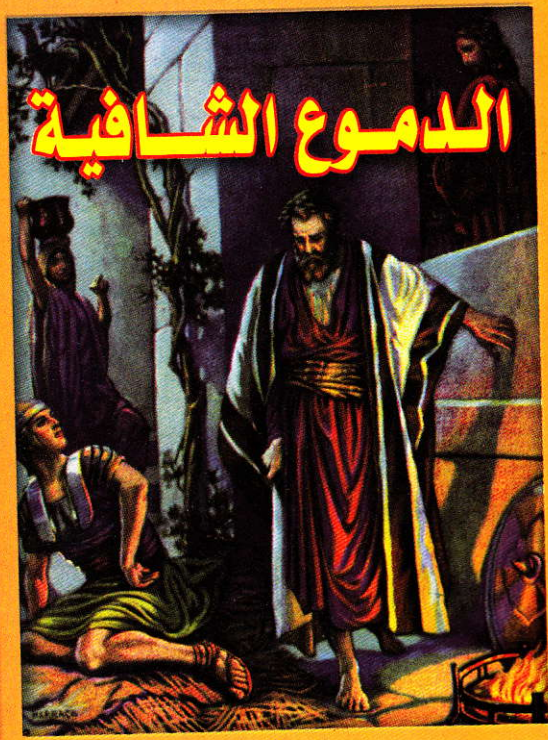

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

الأب أنتوني م. كونيارس
المعرِّب : ي . م

نيافة الحبر الجنيل الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

عبارة غريبة:

قال الرب يسوع: «**طوبى للحزانى لأنهم يتعزَّوْن**».

أليست هذه عبارة غريبة؟ أليس هناك ما يكفي من الحزن في عالم اليوم؟ لماذا يبدو ذلك مضحكًا أن ننادي الحزانى على أنهم مباركون (أي مطوَّبون)؟ بدلاً من تهنئة هؤلاء الذين أعينهم مليئة بالدموع، ألم يكن من الأجدر بالربِّ يسوع أن يبارك أولئك الذين نالوا الغنى والاكتفاء في حياتهم؟ ما المعنى المتحصِّل هنا؟

فإنَّه إذا كنَّا نشارك العالم في مبادئه ولنا نفس قِيَمه، فنحن أشقى جميع الناس. لكن مبادئ الرب يسوع على طرفي نقيض من المبادئ التي نواجهها في العالم.

الهموم والبكاء:

لسنين عديدة كنتُ أتواصل مع الحزانى في أبروشيتي في حلقات مساندة خاصَّة لأولئك الذين فقدوا أحبَّاءهم بالموت. خلال هذه المراحل اكتشفتُ الحكمة الكبيرة الكائنة في التطويب الثاني: «**طوبى للحزانى (للباكين) لأنهم يتعزَّوْن**» (مت ٥: ٤).

فهناك فرق شاسع بين الهم (أي الكآبة) والحزن (النواح)، فالكآبة هي شعور داخلي بالحزن نعيشها ونختبرها في حالات

الفقد أو الموت؛ وأمَّا البكاء (الحزن والنواح) فهو التعبير الخارجي عن مشاعر الكآبة من خلال الدموع.

التطويب والبركة أو الرَّاحة التي قال عنها الرب يسوع في ذلك الموضع لا تأتي من المشاعر الداخلية بالحزن والكآبة؛ بل من التعبير الخارجي عن تلك المشاعر بالدموع.

فالدموع التي نذرفها عند موت أحد الأحباء هي علامة بداية الشفاء. وحتى يسوع بكى على قبر حبيبه لعازر عند موته. وقد اكتشف العلماء أنَّ نوع دموع الحزن يحتوي على مواد كيميائية معيَّنة لا توجد في الدموع الأخرى. هذه الدموع مميَّزة ولها قدرتها الفريدة على الشفاء.

فيما كان أحد الأشخاص يبكي موت زوجته سأل قائلاً: "أين الله في هذا؟" وجاءته الإجابة سريعًا، فقد أيقن فجأة أنَّ الله كان في تلك الدموع التي يذرفها مدرارًا على وجنتيه.

عندما يعبِّر الحزن الداخلي (أي الكآبة) عن نفسه بالدموع، يبدأ الإنسان في اختبار هبة الله بالتعزية.

لكن هناك أسباب أخرى للدموع والبكاء غير فقدان حبيب، كان ينظر إليها المسيح ويفكِّر بها حينما نطق بالتطويب الثاني، وهذه الأسباب هي التي سنوجِّه إليها اهتمامنا.

عطيَّة (هبة) الدموع:

قصَّة:

توجد قصة قديمة بالتلمود تقول إنَّه عندما أخطأ آدم وحواء فإن الله القدوس العادل لم يستطع أن يتركهما في فردوسه الكامل، لذلك فقد طُردا. وانتقل آدم وحواء من الفردوس إلى العالم الأرضي، عندئذ نظر الله من السماء وأحسَّ بالألم حيالهما؛ وقد كان يعرف ما ينتظرهما، لذلك فبتعاطفه قرَّر أن يهبهما عطية تستطيع أن تقودهما إلى الفردوس مجدَّدًا، فأعطاهما "الدموع".

عطيَّة الله:

إنَّ الدموع لهي في الحقيقة عطية من الله؛ فالقديس يوحنا الدرجي St. John Climacus في كتابه "السلم إلى الله"، كَتَب:

"إنَّ الله، لحبِّه للجنس البشري أعطاهم الدموع".

في الحقيقة، الدموع هي إحدى الدرجات الثلاثين في سلم الدرجي الشهير إلى الله، إنَّها الدرجة السابعة في "الحزن المؤدِّي للفرح"، وهبة الدموع ينظر إليها الدرجي كتجديد للمعموديَّة.

يتكلَّم القديس العظيم أثناسيوس بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي عن الدموع كهبة من الله. وقديس آخر من الأوَّلين كتب قائلاً:

"إذا ما أتتكَ الدموع فحافظ عليها بكل قوَّتك".

والقديس يوحنا الدرجي يصف "الحزن المؤدِّي للفرح" قائلاً:

"إذا توشَّحتَ بالحزن المبارك الممتلىء بالنعمة كحُلَّة الزيجة، حينئذ ستعرف الفرح؛ بل والضحك الروحي".

والقديس يوحنا كاسيان John Cassian (القرن الرابع) يتكلَّم عن أربعة أسباب للدموع:

الأول: هو تذكُّر الخطايا الشخصيَّة.

الثاني: هو التأمُّل في المجد العتيد (دموع "الفرح غير المحتَمَل").

الثالث: هو الخوف من الجحيم والدينونة.

الرابع: هو الحزن على خطايا الآخرين.

أكثر قوة من المعمودية:

لا يتردَّد القديس يوحنا الدرجي في أن يكتب بعض الحالات المدهشة عن أهمية الدموع فيقول في تأكيد جريء:

"إنَّ الدموع التي نذرفها بعد المعمودية (معموديتنا ونحن أطفال) لهي تُعادِل المعمودية نفسها في قوَّتها! ذلك لأن المعمودية تغسل فقط الذنوب السالف ارتكابها، أمَّا الدموع فهي تغسل الذنوب التي ارتُكِبَت بعد المعمودية... لو أن الله برحمته لم ينعم لنا بمعموديتنا الثانية هذه (الدموع)، حينئذ لما كان خلُص إلا القليلون. عندما تفارق أرواحنا أجسادنا عندئذ لن نُدان لأننا لم نجترح المعجزات، بل سنُحاسب أمام الله بالتأكيد على عدم ذرفنا للدموع على خطايانا".

ثمرة نعمة المعمودية:

كتب فلاديمير لوسكي Vladimir Lossky معلِّقًا على الكلمات السابقة ليوحنا الدرجي قائلاً:

"إنَّ هذا الحكم على الدموع بأنها تُعادِل المعمودية نفسها، يمكن أن يبدو مضادة صارخة، ولكن يسقط ذلك التضاد لو علمنا أنَّ التوبة هي ثمرة نعمة المعموديَّة. وفي الحقيقة، إنَّ موهبة الدموع هي العلامة التي لا تخيب عن كون القلب قد امتلأ بمحبَّة الله. تلك الدموع المميِّزة للتوبة هي في نفس الوقت أولى ثمار

الفرح اللامتناهي «طوبى للباكين الآن لأنَّهم سيفرحون». الدموع تُنقّي طبيعتنا، لأنَّ التوبة ليست فقط تجهدنا، وتحزننا، لكنها أيضًا العطية اللامعة للروح القدس التي تخترق القلب وتُغيِّره".

قول للقدِّيس يوحنا ذهبي الفم عن الدموع:

يصف القديس يوحنا ذهبي الفم St. John Chrysostom مقدار البركة العظيمة التي تحصل عليها الروح من خلال عطية الدموع فيقول:

"بمجرَّد أن تتجمَّع السحب في السماء، فإنها تجعل النهار مظلمًا، لكن عندما تصب ما بها من ماء (تمطر) فإن الجو يصبح صحوًا مشرقًا. هكذا الحزن، فبمجرد أن يبدأ يتجمَّع في القلب فإنه يظلم أفكارنا، لكن عندما يجد متنفَّسه من خلال الصلاة المصحوبة بالدموع فإنه يجلب للنفس إشراقة عظيمة، حينئذ تُشع عطية الله خلال روح الإنسان المُصلّي مثل أشعة الشمس".

الدموع المقدسة تهب الروح أجنحة:

كَتَب الأب ستافروبولوس Stavropoulos يقول:

"هذا الحزن المطوَّب هو بسبب الدموع التي تعطي أجنحة لأرواحنا، وتصبح الدموع واحدة مع الروح وتنظِّفها وتنقّيها. لذلك فالصلاة الحقيقية هي أم الدموع وابنتها. فالصلاة تتولَّد من الدموع وتلد الدموع".

الحزن المغبوط والمُفرِح:

إنَّ الحزن القادر على تطهيرنا من الخطية يدعوه آباء الكنيسة بالحزن المغبوط. هذا الحزن الإلهي وصفوه على أنه أعلى تعبير (أصدق تعبير) عن الفرح.

دموع الحزن هذه تقود إلى فرح لا يُوصَف. فالمزمور يقول: **«في العشاء يحل البكاء وفي الصباح السرور»** (مز ٣٠: ٥). وكتب ذهبي الفم قائلاً:

"هذه الدموع لا تجلب الحزن بل فرحًا لا تستطيع كل معزيات أو مفرحات العالم أن تجلبه لنا".

«الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج» (مز ١٢٦: ٥).

يكتب الأرشمندريت صوفروني Archim. Sophrony يقول:

"مرارة التوبة تنشئ حزنًا يؤدِّي إلى الدموع التي تُفجِّر الحب الإلهي، وتلك هي علامة على أن صلاتنا قُبلت وسُمعت، ومن خلالها ندخل الحياة التي لا تفنى".

وس قزح روحي:

إنَّ دموع الحزن هي دموع تلمع بالأمل في غد أفضل. مثل هذه
لدموع تشبه في الحقيقة قوس قزح؛ علامة الأمل التي أعطاها لنا
الله. قوس القزح الروحي هذا ينشأ من أشعة شمس ابن الله خلال
دموع الألم ويُحوِّلها إلى قطرات متلألئة من الفرح والأمل.

كتب القديس أمونـاس St. Ammonas تلميذ القديس
أنطونيوس قائلاً:

**"الخوف يولّد الدموع، والدموع تولّد الفرح، والفرح
يعطي القوة التي من خلالها تُثمر النفس جميع الثمار".**

ويصف الدرجي الفرح الناشئ من دموع التوبة قائلاً:

**"إنَّ الإنسان الذي يمشي في طريقه إلى الله بالدموع لن
يكف أبدًا عن أن يُعيِّد (يحتفل ويفرح)، والإنسان الذي
يلتحف بالدموع المقدَّسة المطوَّبة كثوب الإكليل
(الزواج)، يعرف ماهية ضحك الروح".**

أعظم الباكين أصبحوا أعظم الفرحين:

إنَّه لمضادة عظمى أن يصبح أكثر الباكين هم أعظم الفرحين،
فعندما فتحوا الباب للتوبة، فتحوه أيضًا لفرح الفداء. بالتأكيد

قليلون هم الذين حزنوا بعمق مثل الأم تريزا Mother Teresa of
Calcuta على الفقراء البؤساء في شوارع كلكتا. ولكن ماذا
شهد الذين زاروا "البيوت التي أنشأتها للمرضى والذين
يحتضرون"؟ لقد شهدوا فرحًا حقيقيًا لا يُعبَّر عنه.

الدموع: هل هي الإجابة للشعور بالذنب؟

إنَّ إحدى أكبر مشكلات الإنسان هي الشعور بالذنب، فهي
يمكن أن تؤدِّي بالشخص إلى حافة الجنون، بل وأبعد من ذلك
كثيرًا، فيمكنها أن تؤدِّي إلى مرض جسمي من أي نوع (حينئذ
يسمى مرض نفسجسمي Psychosomatic)، بل ويمكنها أن
تؤلم أكثر بكثير من أي عامل مادِّي محسوس مؤلم، ويمكنها أيضًا
أن تصيب بالأرق وأيام كئيبة بلا نهاية. إنَّ الشعور بالذنب هو
أحد أكبر وأعظم أنواع العذاب.

الحل الإلهي للشعور بالذنب يوجد في الدموع، دموع
التوبة. ففي (لو ٧:٣٨) نقرأ عن المرأة الخاطئة التي أتت
للمسيح «**باكية وبدأت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعر
رأسها**». لهذه المرأة المتألِّمة الحزينة من أجل خطاياها الكثيرة
قال يسوع: «**خطاياها الكثيرة مغفورة لها**». لقد غسلت
خطاياها في بحر دموع توبتها.

دموع بطرس:

ربَّما ليس بين تلاميذ الرب من هو أكثر إخلاصًا له مثل بطرس، فقد افتخر أنَّه تحت أي ظرف سيظل أمينًا لسيِّده ومعلِّمه حتى إلى الموت، ولكن كان هو نفسه الذي أنكر سيِّده بقسم ثلاث مرات أنَّه لا يعرفه. حينئذ فجأة تذكر بطرس قول يسوع له «**إنَّك قبل أن يصيح الديك سوف تنكرني ثلاث مرات**»، حينئذ خرج خارجًا وبكى بكاءً مُرًّا. لم ينتحب بطرس فقط ــ كما يقول الإنجيل ــ بل بكى بكاءً مُرًّا.

لقد نال بذلك المعمودية الثانية، ولكن هذه المرة بدموع التوبة، لأنه بكى بكاءً مُرًّا. لقد غُفِرت خطيَّته، بل وأخذ وصية من الرب يسوع بأن: «**ارعَ غنمي**».

لوْ أنَّ دموع بطرس أوصلته لهذا الغفران العظيم، فبالضرورة ستفعل دموعنا. وسواء كانت عينك هي التي تبكي أو قلبك فدع دموعك لا تكون دموع اليأس، ولا دموع الإشفاق على الذات، ولا دموع الكبرياء المجروحة، بل دموع التوبة التي تقود إلى الخلاص.

عندما ننظر إلى الصليب ونرى ماذا عملت الخطيَّة في الله، ونرى أيضًا ما صنعه الله لخلاصنا من داء الخطيَّة المميت، فإنَّ

كان لا شيء يُحرِّكنا لكي نسكب دموع التوبة، بالتأكيد فرؤية المسيح على الصليب سوف تجعلنا نبكي.

دموع يسوع:

لقد تقدَّسَت الدموع حينما بكى ابن الله المتجسِّد يسوع المسيح. لقد بكى سيِّدنا ثلاث مرات: مرَّة على قبر لعازر، ومرَّة على عدم إيمان أورشليم، ومرَّة على خطايا الإنسان عندما كان يصلي بين أشجار زيتون بستان في جثسيماني عندما ذرف دموعًا ودمًا: «**الذي، في أيَّام جسده، إذ قدَّم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرُّعات**» (عب٥: ٧).

وعند النظر إلى أيقونات والدة الإله التي كثيرًا ما تكون فيها باكية يتساءل الناس غالبًا لماذا تبكي والدة الإله؟ فنجيب: ربَّما تبكي لنفس الأسباب التي جعلت ابنها يبكي: لعدم إيماننا، أو ربَّما لكثرة خطايانا، وربما لأن الخطية عملت حاجزًا فاصلاً بيننا وبين الله والحياة الأبدية.

من الأوجب أن نبكي نحن، فربَّما دموع والدة الإله كان غرضها مساعدتنا على البكاء. دموع التوبة التي تجعلنا نترك خطايانا ونرجع إلى الله. قال يسوع: «**يا بنات أورشليم، لا تبكين عليَّ**»، عندما رآهن يلطمنَ وينحنَ عليه عندما كان في طريق

الآلام، وأكمل قائلاً: «**بل ابكين بالحري من أجل أنفسكن وأطفالكن**» (لو٢٣: ٢٨).

دموع حزقيا:

يخبرنا الكتاب المقدس أنَّ الملك حزقيا قد شُفي وأُعطي أعوامًا أخرى للحياة والخدمة لأن الله سمع صلواته ورأى دموعه: (اقرأ إشعياء ٣٨: ١-٦): «**هكذا يقول الرب... قد سمعتُ صلاتك. قد رأيتُ دموعك. هاأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة**» (الآية ٥). وبناءً على ذلك يقول كتاب صلوات التسبحة في عشية أحد الفريسي والعشار (بحسب الطقس البيزنطي):

"**أيُّها الرب القادر على كل شيء، علمتُ كم هي مؤثّرة تلك الدموع؛ لأنها انتشلت حزقيا من أبواب الموت، وخلّصت المرأة الخاطئة من الخطايا المزمنة، كما برَّرَت العشار أكثر من الفريسي. لأجل ذلك أتضرع إليك أن تحسبني بينهم وتنعم عليَّ برحمتك**".

دموع داود:

في (مز ٥٦: ٨) يقول داود لله عن دموعه: «**لقد رأيتَ دموعي فاحفظها في زقّ عندك، أليست هي مدوَّنة في كتابك؟**»، لذلك

فإنَّ دموعنا هي ثمينة جدًّا لدى الله، فيقول داود إن الله يحفظها عنده في زقٍّ حتى لا تضيع نقطة منها.

يقول ذهبي الفم عن دموع داود:

"**إذا أردت أن ترى ما الذي يجعل الفراش جميلاً حقًّا؟ فسوف أريك أزهى وأجمل سرير؛ ليس لمواطن أو لجندي بل لملك؛ داود الملك المبارك. ليس فراشًا مُغطًّى بالفضة ومُغشًّى بالذهب، بل بالدموع والاعتراف. إنه نفسه يقول ذلك مصرِّحًا: «في كل ليلة أبلُّ فراشي بدموعي». لقد ترك آثار دموعه على كل أجزاء فراشه. عليك أنت أيضًا أن تجعل سريرك مثل ذلك**".

عندما وبَّخ ناثان النبي داود، حزن داود على خطاياه وتاب من قلبه. وبكى وانتحب وطلب رحمة الله قائلاً:

«**ارحمني يا الله كعظيم رحمتك... اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيَّتي طهِّرني، لأنِّي عارف بإثمي وخطيَّتي أمامي في كل حين**» (مز ٥١).

دموع المرأة الخاطئة:

ذات يوم انحنت امرأة خاطئة أمام الرب يسوع عندما كان متَّكئًا على مائدة سمعان الفريسي وغسلت قدميه بدموع توبتها

ومسحتهما بشعر رأسها ثم دهنتهما بطيب غالي الثمن. فقال يسوع إنَّ خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنَّها أحبَّت كثيرًا (لو ٧:٣٦-٥٠).

في الأحد الخامس من الصوم المقدس قبل أحد الشعانين مباشرة (حسب الطقس البيزنطي) تضعنا الكنيسة أمام امرأة خاطئة أخرى: القديسة مريم المصرية، التي تابت عن خطاياها، وبدموعها وجدت طريقها إلى حياة جديدة في المسيح. تضعها الكنيسة كمثال في آخر أحد من الصوم لتعطينا نموذجًا أخيرًا للتوبة قبل نهاية الصوم. وعندما رأت مقدار عمق الخطية بداخلها والشر الذي شاركت به العالم الفاني، حينئذ كانت القديسة مريم المصرية تصرخ مثل كل آباء وأمَّهات البرية: "أيُّها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئة". وفي مرارة دموعهم الحلوة التي لتوبتهم اكتشفوا حلاوة غفران الله.

قيل إنَّ القديس أرسانيوس العظيم St. Arsenius the Great كان يضع خرقة على ركبتيه، فأثناء عمل يديه كان عقله مشغولاً بصلاة التوبة، وكانت الدموع تجري من عينيه لتهطِل على الخرقة.

وقيل أيضًا إنَّه تكوَّن أخدودان عميقان على وجنتيه من كثرة البكاء والدموع التي كان يذرفها أثناء عمل يديه.

لأنهم يتعزَّوْن:

الوعد يقول إنَّ أولئك الحزانى سيتعزَّوْن.

إنَّ كلمة الله تؤكِّد لنا أنَّ الله نفسه سيكون هو المعزِّي، فإنَّه هو الذي سيمسح كل دمعة من على وجه البشريَّة المعذَّبة. عادة ما نرضى ونستريح بأن يواسينا شخص ما، وأن يشاركنا ويتأثَّر معنا، أمَّا الأسفار المقدسة فتخبرنا مرارًا أنَّ الله نفسه سيمسح كل دمعة من عيوننا (إش ٢٥:٨)، وأنَّ الله سيعزِّينا بنفسه كما تُعزِّي الأم طفلها (إش ٦٦:١٣). وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم (رؤ ٧:١٧).

آباء الكنيسة والحزن:

الأب فوتيوس Photios يتكلَّم عن "ينبوع الدموع، تلك البركة الأكثر امتيازًا وأكثر فائدة، التي تنحدر على الخدود، بل تغسل كثيرًا النفس... وتسقي فردوس النفس لكي تحمل أثمارًا لنا". ويقول أيضًا إنَّ الدموع تمنح "رائحة زكيَّة" إذ إنَّها "تمسح اتِّساخات وتشوُّهات" أرواحنا.

يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً:

"تأمَّلوا وجه القديس بولس الذي كانت تسيل عليه الدموع ثلاث سنين ليلاً ونهارًا لم يكف عن البكاء. اجعل

وجهك يلمع بالدموع، ابكِ على خطاياك؛ على غضبك وفقدان ضبط نفسك ومحبَّتك للخطية. اقتدِ بدموع بولس وسوف تزدري بتلك الحياة الزائلة. المسيح بارك وطوَّب الدموع عندما قال: «طوبى للباكين الآن لأنهم سيضحكون». لا شيء أحلى من تلك الدموع. إنها مُفضَّلة عن أي سرور. صلِّ بحرارة من أجلها لكي عندما يخطئ الآخرون ينكسر قلبك من أجلهم. ارفع صلاتك من أجل أولادك وبناتك بنفس الطريقة. ابكِ من أجلهم إذا رأيتهم يشردون بعيدًا، متذكِّرًا كلمات المرتِّل في المزمور: "الرب سمع صوت بكائي... الرب قبل صلاتي"".

➢ صلاة ➢

يارب، نشكرك لأنَّك أعطيتَ لنا عطيَّة الدموع؛

لكي تشفي بها آلامنا الداخليَّة، وتمنحنا الشفاء والتعزية.

يارب، هبنا دموع التوبة الحقيقيَّة... دموعًا صادقة نُبرهِن بها على جديَّة توبتنا...

دموعًا ممتلئة أملاً ورجاءً في الخلاص...

دموعًا تغسل من الآثام وتُطهِر من الأوزار. آمين.

مطرانية بني مزار
والبهنسا

نبذات روحية هادفة
(٧٥)

الدموع الشافية

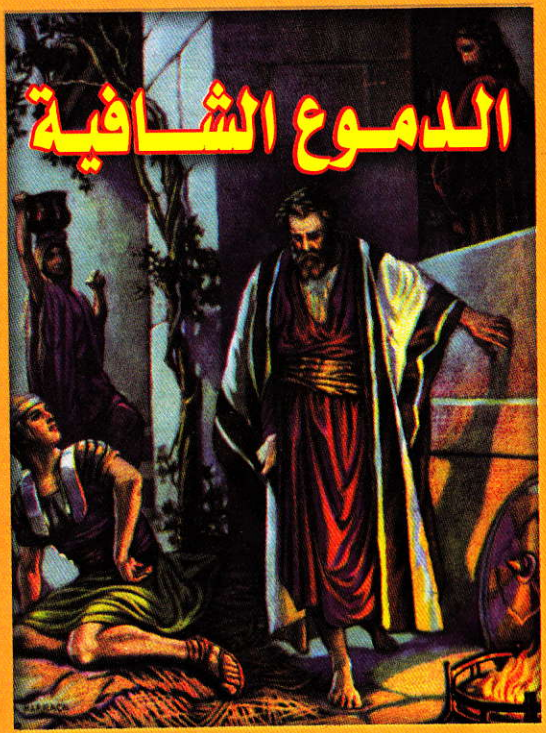

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

الأب أنتوني م. كونيارس
المعرِّب : ي . م